

**الوسطية والاعتدال والتسامح  
بين الخصائص الكامنة  
والممارسات الظاهرة**

obeikandi.com

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم

الحمد لله الحكم العدل ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة والفضل ، وعلى آله وصحبه أهل الحكمة والعقل ، وبعد :

هذا بحث موجز عن منهجية الإسلام وعلاقته بالآخرين في مظلة شريعة الله تبارك وتعالى المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح في كل شؤون الحياة الخاصة والعامة ، مع النفس ، وفي مجال الاعتقاد ، والاقتصاد ، والتربية ، وأحكام التشريع ، والحكم والإدارة ، والولاء والطاعة ، والسلم والحرب ، بل وفي الزمان والمكان وممارسة الفعاليات ، وفي المواقف والمبادئ ، والتعامل مع الآخرين على النحو المعتدل من غير إفراط في التمسك بالقيم والمبادئ ، ولا تفريط في الحقوق والمكاسب ، والحفاظ على الذات والوجود المعيشي والدولي وتلقين أصول المعرفة والإيمان الحق للآخرين ، وممارسة الحوار والالتزام بالضوابط والقيود التي تحقق التوازن والاعتدال بين المطامح والمصالح ، وبين النظرية والتطبيق ، وبين الوجود الفاعل والمنفعل ، وفي ضوء شرع الله وهديه القائم على العدل والرحمة والإحسان ، والتعاون والتعايش الودي مع الآخرين ، والتزام القيم والأخلاق والعمل على تحقيق آفاق الإسلام ونزعتة العالمية دون إساءة ولا إثارة ، ولا طمع ولا عدوان .

وهذا يوجب علينا أن نتعايش على وفق ظروف العصر والإمكانات المتاحة أو الواقعية دون تحليق في الأحلام والأخيلة والآمال المعسولة ، ومع التزام مقتضيات الحكمة والتأني والعقل والرشد ، والوعي والنضج .

- ويتطلب هذا المنهج التعرف بتؤدة وموضوعية وحياد على ما يأتي :
- طبيعة الإسلام في هديه ودستوره ومقاصده وشرائعه .
- مدى التزام المسلمين قادة وشعباً عبر التاريخ القديم والحديث بأصول شرعهم .
- مفهوم الوسطية والاعتدال والتسامح وآفاق الإنسانية المعاصرة .
- الوسطية بين الإفراط والتفريط أو بين الخصائص الكامنة والممارسات الظاهرة ، أو بين النظرية والتطبيق .

\* \* \*



## طبيعة الإسلام في هديه ودستوره ومقاصده وشرائعه

الإسلام الحنيف والدين العالمي خاتم الشرائع الإلهية دين خالد ، وشرع دائم ، ورسالة إصلاح وإنقاذ ونجاة للعالم كله ، يدعو لخير البشرية في الدنيا والآخرة ، ويحرص على إشاعة قيم الحق والجمال ، والتحضر والبناء ، وغرس العقيدة الحققة ، والعمل على ضبط معايير الحياة بالنظام الأصلىح ، والمنهج الأحكم ، ومعرفة الطريق الأرشد .

فإن اعتقد به عقلاء الناس وفهموه ، تحققت الغايات الكبرى ، وإن عاداه أهل الأهواء والحظوظ النفسية ، كان الخراب والدمار والانحراف عن الهدى الأقوم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝١ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء : ٩-١٠] .

فليس الإسلام عبثاً على البشرية كما يتوهمون ، وإنما هو بلسم ناجع لجراحها وآلامها ، وتزويدها بأفضل مقومات الحياة الإنسانية .

ويقتضى هذا أن يكون الإنسان عنوان الخير المحض ، وسبيل الإصلاح والتقدم ، وأساس العمران والتحضر ، لذا تجد شرائعه كاملة تجمع بين أصول بناء العقيدة الحققة ، والعبادة الصحيحة ، والأخلاق القويمة ، والمعاملة الشريفة النقية من كل ألوان التعثر والانحراف والظلم ، والقائمة على قواعد العدل والتوازن ، ورعاية المصالح

والحاجات ، وتحقيق المقاصد والغايات من أيسر الطرق وأصح المناهج .

ثم إن هذا الدين لا ينبغي إلا الخير للإنسان ، وإشاعة روح المحبة والتعاون والمودة بين الناس ، وجعل معلم الحق والعدل والرحمة هو قاعدة الحياة الكريمة والسوية .

والإسلام يتحدى العالم في كل عصر وزمان ومكان أن يوجد بديل أفضل منه في الحياة العامة والخاصة ، قال الله تعالى موضحاً المنهاج الإسلامي : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . ويقصر القرآن الكريم مهمة النبي ﷺ في دعوته العامة على نشر الرحمة بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ويجعل الإسلام قانونه العالمي العام قائماً على التعاون والتآلف ، لا التناكر والاختلاف ، ولا الصراع والخصام والتضاد ، ولا التآمر والتقاتل والتدمير ، وذلك في صريح بيانه الشامل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . والتقوى رمز لكل القيم الإيجابية والصلاح والعمل النافع والبناء الشامخ وتعميم الخير ، واستئصال كل نوازع الشر والانحراف .

ففي العقيدة : تتجلى الوسطية والاعتدال بين الخالق والمخلوق ، والخالق هو الإله الواحد ، فلا آلهة أخرى على الإطلاق ، والمخلوقون هم على قدم المساواة عباد الله ، وليس هنالك وسطاء بين الله وعباده ، والعلاقة مباشرة وسهلة مع الله بطاعته ومحبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١] ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

يَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ [غافر : ٦٠] والله هو الرازق ، ولا رازق سواه ، وهو وحده الذي يحاسب الخلائق يوم القيامة على أعمالهم الخيرة والشريرة ، وهذا غاية العدل والإنصاف ، والاعتدال والتسوية بين الناس دون تمكين أحد من المحاباة والميل أو الجور .

وفي العبادة : تتجه كل النفوس صاغرة منقادة إلى ربها ، شاؤوا أم أبوا ، فلا معبود إلا الله ، ولا تصح العبادة لغير الله ، والناس ذكوراً وإنثاً متساوون في الطاعة والتكليف ، دون توسط أحد إلا لمن أذن له الرحمن بالشفاعة ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

والعلم والتعلم وإدراك العقل : ممكنان لكل أحد ، والملكات واحدة أو متقاربة ، والتفاوت إنما هو في إعمال العقل وتفعيله وفي تفوق أو توسع المعلومات ، قال سبحانه : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوِلَاةَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] . فلا تكتب المعارف بألوان التقليد الأعمى والظنون والشكوك والأوهام ، ولا بأدلة الحس والوجدان ، والأخبار وحدها ، وإنما بتزويد الله المعارف أيضاً : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ثم تنميتها بالعقل والاختبار والتأمل والملاحظة والمشاهدة والإدراك ، وهذه وسطية المعرفة الجامعة بين المنحة الإلهية والطاقة البشرية .

والإنسان : مكون من جسد وروح ، ولكل إنسان حاجات ومطالب ، فجمع الإسلام بين مراعاة الماديات والروحانيات ، وبين الدنيا والآخرة ، لتحقيق التوازن والاعتدال ، والكفاية ، دون لجوء إلى الكبت والقسر ومعاداة الفطرة ، ومثال ذلك : إباحة الزواج وتحريم

الرهبة ، والإذن بتناول الطيبات والتزين المباح في الحياة ، قال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ ءَادَمُ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ٣١ ﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿

[الأعراف : ٣١-٣٢] .

والأخلاق الإسلامية والقيم الكريمة والعليا تتضح فيها بحسب منهج القرآن المجيد معالم الوسطية والاعتدال ، فلا شذوذ ولا إفراط ولا تفريط ، ولا حرص على المنافع المادية فقط ، وإنما لا بد من الإحسان والتراحم ، وإعمال القوة العاقلة والإشفاق ، وتحقيق التوازن أو التعادل في المعاملات بالتزام فضيلة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه ، والانضباط دون التهور باستخدام الجرأة الأدبية والشجاعة دون إلقاء الأنفس إلى التهلكة ، وبالجود من غير إسراف ولا تقتير ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقال عز وجل : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ... ﴾ [النساء : ١٤٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَحَرِّزُوا سِتْرَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وقال نبي الإسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أو « صالح الأخلاق »<sup>(١)</sup> .

والاقتصاد أو المال في الإسلام قائم على مبدأ تحقيق الكفاية ، والمنافسة الحرة ، والتوازن بين مصلحة الفرد والجماعة ، ورقابة الله في الأخذ والعطاء ، وتلك هي الوسطية الراسخة التي تضمن للناس الاستقرار والاطمئنان ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة .

وَعَاقِبَ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّالِمِينَ فِي الرِّقَابِ ﴿البقرة : ١٧٧﴾ .

ونحن أمة الوسط في التربية والتعليم والدعوة إلى الدين الحق ، فلسنا نهمل أنفسنا كما ولدت ، وتركها على الطبيعة بمالها وما عليها ، وإنما لا بد من المجاهدة والتزكية والترويض وتعديل الغرائز ، ومراعاة مؤثرات البيئة الاجتماعية النفسية والسلوكية ، لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] أي قد فاز من نمى عوامل الخير والفضيلة في نفسه ، وخسر من أهمل نفسه فلم يتعهداها بالرعاية والتربية . ودعوتنا إلى الدين بالعقل والمنطق والأسلوب الحسن دون إجبار ولا إكراه ، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ووسطيتنا في نظام الحكم والإدارة واضحة ، فهي تقوم على منهج الشورى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

فلا دكتاتورية ولا استبداد ، ولا ديمقراطية زائفة تحمي مصالح الرأسماليين وأعوانهم .

ولا احتكار لأرباب الشركات الكبرى ، وأصحاب النفوذ والطغیان ، ولا نلغي وحي الله وشرائعه ، أو نحتكم إلى مجرد العقل البشري الذي قد يخطئ ويضل ، بل قد يتأثر الواضعون للقوانين بالأهواء والمصالح ومراعاة حاجات فئة معينة .

والإدارة في الإسلام تجمع بين مزايا النظام المركزي واللامركزي كما هو معروف .

والعلاقات مع غير المسلمين في الداخل تعتمد على أصول التعايش الودي والتحابب والتواصل والتعاون في كل المجالات ، مع الاعتراف بالمواطنة التامة لغير المسلمين والتعامل بمقتضى العدالة والمساواة ، لقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحة : ٨] .

وفي الخارج تقوم علاقاتنا الخارجية أو الدولية على احترام مبدأ السلم والأمن الدوليين ، وتبادل المصالح ، وعدم اللجوء إلى الحرب أو القتال إلا لضرورة أو للدفاع عن النفس والبلاد ووجود الأمة ودفع الظلم ، وحماية المستضعفين ، لقوله تعالى معبراً عن المبدأ الشامل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

واحترام حقوق الإنسان أساس في شريعتنا ، في مظلة المبدأ العام وهو تكريم الإنسان من الله ومن عباده ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

هذه هي نماذج الوسطية والاعتدال في ميزان الشريعة الإسلامية ، لها مدلولها وتغلغلها في كل أحكام الشريعة ، ووجوب التزامها وتطبيقها .

## مدى التزام المسلمين قادة وشعوباً بثريعتهم

المسلمون حكماً ومحكومين أشد الناس وأكثرهم في الجملة التزاماً وتقيداً بأحكام شريعتهم الإلهية ، لانطلاقها من منهج العقيدة الراسخة والمهيمن على النفس ، والتعبير عن تفاعله المتميز في نفس الإنسان ، أثناء عبادته لربه في الصلاة والصيام والزكاة والحج ، واستشعار هبة الله وجلاله والخشوع له ورقابته في السر والعلن .

فلقد كان أغلب الحكام المسلمين إجمالاً في تاريخنا الماضي مثلاً رائعة في تطبيع شرع الله ، على تفاوت بينهم في القلة والكثرة ، والضعف والقوة ، والاستخذاء أو الاستضعاف والجرأة والشجاعة ، والتقوى ، وما يزال المسلمون في الجملة على الرغم من انفلات بعضهم وانغماسه في المعصية والانحراف هم عناوين مشرفة وواضحة للعمل بهدي الله تعالى واتباع رسوله في مقاومة الأهواء ، وجهاد النفس والعدو والخارجي ، والشيطان ، والحذر من وساوسه ، كما أوضح القرآن : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ ﴾ [فاطر : ٦٥] ووعي الكثرة المسلمة واضح في اتباع الحق والبعد عن الضلال والفسق ، وإن ضل أكثر غير المسلمين أو بعض المسلمين أو انغمسوا في المعاصي ووهاد الانحراف ، فهذه هي السمة الغالبة التي تؤكد أننا على الحق ، وإن تواطأ الأكثرون على مناصرة الباطل ،

واختراق أصول الشرع الإلهي ، كما وصف القرآن الكريم هذه الظاهرة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] أي يخمنون ويقدرّون من غير بينة وعلم ، بل ويكذبون .

وظاهرة الالتزام الإسلامية تضيي على المسلمين في الغالب صفة الاطمئنان والثقة ، وتحمي مصالح الآخرين ، إذا كانوا يؤيدون الاحتكام إلى قواعد الحق والعدل والمنطق والموضوعية وتطبيق شريعة الوسطية ، لا اللجوء إلى الأهواء وتحقيق المطامع والانزلاق في مغبة الاستكبار والاستعلاء .

فإن من نعمة الله تعالى الوافية على المسلمين أنهم أيضاً وسط في الزمان والمكان والفعالية .

أما وسطية الزمان : فالمسلمون لم يكونوا مثل الغابرين المتخلفين أو البدائيين ، وليسوا في نهاية عمر الزمان ، حيث يأفل نجم الحضارة ، ويتقاصر مدى الانطلاق الحضاري ، وكانت شريعتهم منسجمة مع تطور العقل البشري ، وتقدم العلوم والمعارف ، وهم الآن في الربع الأول من القرن الخامس عشر يشهدون قفزة الحضارة المعاصرة إلى القمة ، ويستفيدون من نتاجها ، ويتمتعون بخيرها وحصادها وإن قصروا في الإسهام فيها بسبب تكتل قوى الآخرين ضدهم ، وتطويقهم ، وحصرهم في أضيق نطاق ممكن ، وتجدد محاربتهم وإضعافهم في كل زمان ، وإبقائهم في درجة كبيرة من التخلف والتفرق والجهل والضياع .

وأما وسطية المكان أو الموقع الجغرافي : فمكة المكرمة وفيها البيت الحرام والكعبة المشرفة التي هي قبلة المسلمين في المشارق



والمغرب هي في منتصف مركز الكرة الأرضية ، والعالم موزع من حولهم في الجهات الأربع . والشرق الأوسط الذي يعيش فيه أعداد كبيرة من المسلمين محطة أنظار العالم ، وهو أهم موقع في الصراع الدائر بين الشرق والغرب ، ومزايا هذا الموقع كثيرة ومهمة جداً ، ففيه المعادن المختلفة والثروات النفطية الهائلة بنسبة خمس مخزون النفط العالمي وهو موقع استراتيجي حساس ، ومناخه معتدل .

ووسطية الفعالية : واضحة المعالم في الفكر الإسلامي المتجدد والمعطاء والقابل للنماء السريع ، إذا أزيلت السدود ، وحطمت القيود المحيطة بالمسلمين وما أكثرها ، لأن الحضارة الإسلامية حضارة قوية وشاملة وقابلة للانبعاث من جديد ، ولأن المسلمين الأصحاء فكراً وعقيدة وسلوكاً لا يرضون بغير اعتلاء برج القمة في السبق الحضاري ، وإن كانت الظروف المحيطة شائكة ، وكثيرة التعقيد ، وهذا ما يزرعه الأعداء من شرق وغرب في الوسط الإسلامي لمواجهة المسلمين ، ومحاولة إيقائهم متخلفين ومجزأين أو متفرقين شيعاً وأحزاباً وحكومات متنافرة .

وكفى تزكية وشرفاً للأمة الإسلامية أنها مقبولة الشهادة عند الله في الآخرة ، وقد منحها الله تعالى صفة التزكية ، فصار المسلمون شهوداً عدولاً ، كما قررت الآية الكريمة التي يستشهدون بها خطأ على وسطية الأمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾ [البقرة : ١٤٣] والوسط هم الخيار والعدول ، وليس معناه التوسط في الأمور والاعتدال في الأحكام ، فهذا يفهم من آيات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾

## مفهوم الوسطية والاعتدال وأفاقه الإنسانية المعاصرة

الوسطية : تعني التوسط بين الطرفين كوسط الدابة والمكان والمرعى والحال المعيشية ، وأقرب ما يعبر عنه لغة أنه الاقتصاد ، أي الوقوف في موقف الوسط والاتزان ، كما جاء في الحديث النبوي : « خير الأمور أوسطها »<sup>(١)</sup> وكما وصف الحق تعالى أصناف الناس في مواجهة الشرائع والكتب الإلهية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، والمقصد : المتوسط .

ويشير أو يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

ووصف الله شريعته بأنها على الصراط السوي : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

(١) ذكره الديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً ، ولأبي يعلى بسند رجاله ثقات عن وهب بن منبه قال : « إن لكل شيء طرفين ووسطاً ، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان ، فعليكم بالأوسط من الأشياء » .

والاعتدال : معناه الاستواء والاستقامة ، يقال : اعتدل من الركوع أي استقام ، واعتدل المناخ : كان الجو نظيفاً ، لا بارداً ولا حاراً .

والتسامح : صيغة مفاعلة بإظهار السماحة من الجانبين ، والأدق أن يقال : سماحة الإسلام ، أي المتجسدة في ذاته وتعاليمه وأحكامه ، ولا يتوقف ذلك على سماحة خصومة من الآخرين غير المسلمين . ومعناه : الأخذ بالأيسر والسهولة ، والابتعاد عن الشدة والقسوة ، وهذا المبدأ وهو اليُسْر أو عدم الحرج من خصائص التشريع الإسلامي المقرر في آيات كثيرة ، ومنها : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وتكون الكلمات الثلاث مؤدية معنى متقارباً يتمثل في أن تعاليم الإسلام ليس فيها غلو أو تطرف أو إرهاب ، ولا تهاون أو تقصير ، أو ذل أو استسلام ، وإنما لا بد من الحفاظ على حق المقاومة أو الدفاع أو جهاد المعتدي ، للحفاظ على الوجود .

ومقتضى ذلك : أنه لا يجوز ولا يصح بحال تعطيل أو نقض أحكام الشريعة ، ولا الزيادة عليها ، أو الابتداع فيها ، فالإسلام دين الحكمة والجرأة والأصالة وتسديد الحقوق والوفاء بها . وهذا يعني أنه لا يصح أن تفهم الوسطية وما في معناها أنها استسلام لأطماع الأعداء أو الرضا بالتسلط وممارسة الظلم وهضم الحقوق ، وابتلاع الوجود الإسلامي أو العربي ، أو المساس بالمقدسات ، أو الإذعان والخضوع لهيمنة المحتل أو الغاصب أو الظالم ، فإن الإسلام دين الحق والعدل والمنطق والعزة ، قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] ، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

والإسلام أيضاً دين الرحمة والحضارة والمدنية ، فلا يقر العدوان ولا الفساد أو الإفساد ، ولا الضرر والإضرار ، ولا يبيح لفئة شاذة أن تعيث في الأرض فساداً دون إذن الحاكم العادل أو موافقة السلطة الشرعية ، وإلا صار الأمر فوضى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] وندد الله سبحانه بالمفسدين في الأرض في قوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ووبخ الله تعالى قادة الفساد الذين يورطون غيرهم في الآفة الشريفة : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتْسِرِّينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥١-١٥٢] .

وقال النبي المصطفى ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً »<sup>(١)</sup> أي ولا غير المسلم ، وفي حديث آخر : « ملعون من ضارَّ مؤمناً أو مكر به »<sup>(٢)</sup> وهو يشمل أيضاً غير المؤمن ، لأن الله يحرم على الإطلاق الضرر والإضرار بأي واحد .

هذه هي واجهة الإسلام وحقيقته ، وهي رسالة عامة للبشرية وخالدة ، فلا يعقل أن يكون فيها ما يصادم العقل والحكمة والمصلحة ، وإنما خيرها يعم الإنسانية ، وهي تطمح أن يفيء الناس جميعاً إلى ظلها ، ويدخلوا في لواء عقيدتها ، وذلك يعني أن الإسلام دين لا يعرف الإرهاب وهو الاعتداء غير المشروع ، ولا يقر الفساد والإضرار ، ولا يفرط في الحقوق المشروعة ، ولا يرضى لأتباعه تحمّل الضيم والأذى ، وقد أذن القرآن الكريم بالقتال في أول آية مع بيان أسباب مشروعية الجهاد لردّ الاعتداء والدفاع عن الحرمات : حرمة

(١) أخرجه أحمد وأبو داود عن رجال ، وهو صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي بكر ، وهو حديث حسن .

النفس ( حق الحياة ) والعرض ( القيم العليا ) والمال ( حقوق الإنسان المادية ) ، فقال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩-٤٠] . فلا يكون الجهاد أداة صراع مع الآخرين ، وإنما هو وسيلة لإشاعة السلام واستقرار الأوضاع وتبليغ دعوة الحق والتوحيد والعدل .

وإذا وجد ظرف الاستضعاف أو الضعف ، وجب الصبر ، حتى تتوافر القوة المناسبة لاستخلاص الحقوق المغتصبة . وهذا الاتجاه هو ما تقره شرعة أو ميثاق الأمم المتحدة ، فيجب على أهل هذه الشرعة وهم المجتمع الدولي أن يحافظوا عليها ، وأن يعاملوا الآخرين بمكيال أو ميزان واحد ، ويتعدوا عن ازدواجية المعايير ، والمعاملة لحساب طرف على حساب الطرف الآخر .

\* \* \*

## الوسطية بين الخصائص الكامنة والممارسات الظاهرة

الوسطية في الإسلام ظاهرة واضحة من خلال ما تقدم ومن صريح النصوص القرآنية التي تقرر مبادئ ثابتة ، منها : دفع الحرج والأخذ باليسر ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . والإصر : التكليف الشاق والأمر الصعب ، فهذا مرفوع في شرعنا .

ومن مقتضيات الوسطية : إقرار الحرية للمؤمنين ولغير المسلمين في أن يختاروا ما يريدون ، ثم يكون الحساب على ما اختاروا ، فإن أساءوا الاختيار عوقبوا ، وإن أحسنوا الاختيار كوفئوا بالجزاء الأحسن ، لاتضاح الأمور وظهور الحق وانكشاف زيف الباطل ، وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشْكَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] فالآية تعني الإنذار والتهديد لكل من أساء الاختيار فصار من الظالمين .

وتقرير الحرية للآخرين يعني تمكينهم من ممارسة الحرية بأنواعها ، وهذا لا يتوافر إلا بنظرة السماحة أو التسامح بين أفراد المجتمع الإنساني ، ثم يترك أمر الحساب على سوء الممارسة إلى الله عز وجل

في الدار الآخرة ، وليس على النبي الرسول ﷺ ولا على العلماء وأمة الإسلام إلا البيان وتبليغ الدعوة ، دون إحراج ولا تضيق ولا إكراه ، كما أبان الحق تعالى بقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقوله عز وجل : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] وقد أراح الله البشرية قاطبة بهذا البيان العام الشامل القاطع لتعميم الحرية وتعميقها في آية : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

والتزم المسلمون في كل عصر بهذا التوجيه ، فلم تقع حادثة منهم تتنافى أو تتصادم مع هذا النداء الإلهي ، ولم نجد في التاريخ أن أحداً من المسلمين أكره غيره على الدخول في الإسلام ، لأن العقيدة تتطلب الاقتناع والاستقرار الذاتي في القلب ، ولا ينفع الإكراه في إيجادها أو حمل الناس على إعلانها ، لأن ما ثبت بالإكراه سرعان ما يزول بعد زوال ظرف الإكراه .

ومن متطلبات الوسطية والتسامح : الاعتراف بالآخرين وبالتعددية الدينية والمذهبية والعرقية والفلسفية في العالم ، فكل ما يعارض هذا التوجه يؤدي إلى الإخلال بالثقة ، ويزرع التهمة وسوء الظن ، ويحول دون ممارسة ظاهرة السماحة والتقارب والتعايش السلمي والودي الذي عامل به المسلمون غيرهم ، فظاهرة الاختلاف وضع قائم ، وعلى الرغم من الاختلاف ، فلا بد من التعارف والتعاون في عالم الدنيا وترك حصيلة الاختلاف للحساب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والوسطية : تعني أيضاً ضرورة الانفتاح على الآخرين ، ومواصلة

الحوار معهم ، والحوار الهادئ القائم على الاحترام المتبادل بين طرفيه يحقق آثاراً ونتائج طيبة ونافعة ، لأن سماحة الإسلام تغرس في النفس الراحة والطمأنينة بعد أداء الواجب في البيان والتبليغ . وليس الهدف من الحوار كما يشيع الآن مجرد محاولة تهدئة الطباع وإزالة التوتر ، وتخفيف حدة الصراع والنزاع ، وانتزاع الغل والحقد والكراهية والبغضاء من النفوس ، وإنما الهدف الأسمى هو إثراء الفكر ، وإظهار السماحة ، وتبيان الحق ، وتحقيق مدلول التعاون المثمر بين المجتمعات الإنسانية والعائلة البشرية فيما يعود على الجميع بالخير وتبادل الود والمحبة وإظهار حسن النية ، وزرع الثقة وحسن الظن ، والبحث عن الجسور المشتركة بين أفراد النوع الإنساني التي هي اللبنة الأساسية للتعاون بين الأمم والشعوب ، وحينئذ يكون الحوار ضرورة وقيمة إنسانية ودينية في آن واحد ، ومظهراً حضارياً رفيعاً .

والوسطية أو السماحة : لا تعني اللجوء إلى التحريض وزج المجتمع الإنساني في أتون المنازعات أو الاقتتال وإشعال نيران الحروب ، فإن دعوة الإسلام في أصولها وممارساتها قائمة على إثارة السلم والسلام ، وعدم الالتجاء لاستخدام القوة إلا عند الضرورة أو الدفاع ، أو منع الظلم ، أو إغاثة المستضعفين .

ولعل أفضل ما أذكر به في هذه المناسبة : ضرورة الاستئصال بلواء النداء الإلهي في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] وذلك سواء فسرت الدعوة إلى التزام ظاهرة السلم بالإسلام فهو كله سلام ، أم بالسلم والأمن ضد الحرب والقتال .



## خاتمة

وبعد بيان هذه اللحاحات الإيمانية الصافية يتبين لنا ما يأتي :

١- ضرورة وضع تعريف شامل وموضوعي نابع من منطق الحق والعدل لكلمة « إرهاب » التي اتخذتها قوى الاستكبار العالمي والصهيونية العالمية مظلة لشن الحروب الطاحنة واحتلال أراضي الدول الأخرى ، وتدمير كل مظاهر العيش الكريم وإيادة الشعوب ، وجعل البلاد والأوطان والديار مهدمة على رؤوس أهلها ، وقتلهم ، وتشريد الشيوخ والنساء والأطفال من ديارهم ، وقصف المساجد ودور العبادة بأفتك آلات الخراب والدمار ، لتصريحهم بأنهم لا يؤمنون بقديستها ، وجعل البلاد صحارى بعد عمرانها .

٢- إن « المقاومة » أو الجهاد أو الدفاع ضد المحتل واجب مقدس ومشرف ، وذلك ما يعترف به ميثاق الأمم المتحدة ، بغض النظر عن أن جنود الشر من قوى التحالف الغربي يصرحون بكفرهم وضلالهم ، وأنهم لا يؤمنون بالدين إسلاماً كان أو غيره ، ولا بالمقدسات ، وإنما يعتمدون على قوة الاقتصاد والسلاح وغطرسة القوة العسكرية وتفرد أمريكا بزعامة العالم أو الانفراد بالقطب الواحد .

٣- إن هذا الإرهاب الدولي الذي تمارسه قوى التحالف الغربي في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من البلاد كان هو السبب في ظهور الإرهاب بالمعنى الذي يريدون ، بل إنه هو السبب في تزايد ظاهرة

الإرهاب وانتشارها ، وتأجيج نيران الحقد والكراهية بين الناس ، والظلم والاستماتة في الدفاع عن حرمة الأوطان .

٤- إن تورط بعض الشباب المسلم في ارتكاب بعض الأعمال الإرهابية في داخل الدول العربية والإسلامية وغيرها لا مسوغ له بحال ، بل يتنافى مع خصائص الوسطية الإسلامية والتسامح الإسلامي ، وهو إفساد وخراب وتدمير وتقتيل ، ولا يقره شرع الله ودينه . وعلماء المسلمين قاطبة متفقون على عدم مشروعيته والتنديد بمن يمارسه أياً كان مقصده أو نيته ، فهؤلاء فعلاً هم الإرهابيون الذين تجب مقاومتهم ، ولكن هل تأديبهم يعني حصاد الشعوب واحتلال الأوطان من قبل المستعمرين الظالمين ؟!

٥- أما الرد على عدوان المعتدين في أي مكان والدفاع عن النفس والبلاد والممتلكات والمقدسات فهو دفاع مشروع ، ومقاومة شريفة بل وواجبة ، ولا يسمى ذلك إرهاباً بل الإرهاب هو ما تصنعه دول الظلم والعدوان وما يقوم به أهل الحق يعد مقاومة مشروعة ضد المعتدين .

٦- على جميع المسلمين في العالم تأييد أبطال المقاومة ضد المحتلين والغاصبين والمعتدين بالمال والنفس وكل أنواع المؤازرة والدعم والمشاركة والتعاون ، وذلك يعد استهاداً في سبيل الذود عن الحقوق ، وليس انتحاراً كما أساء فهمه بعض المفتين ، بل وليس حراماً كما زعم بعض المفتين ؛ لأن هؤلاء المقاومين لا يملكون غير هذه الوسيلة .

٧- على أولئك الذين يتورطون بأعمال تخريبية أو غيرها في داخل الدول العربية والإسلامية ضد حكوماتهم أن يدركوا أن ممارساتهم هذه مهما قيل في تأويلها وتسويقها هي خطأ محض ، تتصادم مع خصائص

شريعة الله ، ومنها الوسطية وتحريم الفساد والتدمير بغير حق ، فذلك هو عين الشر والباطل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

٨- إننا بأشد الحاجة لفهم شرائع الإسلام فهماً صحيحاً وعميقاً ، وأن يكون خطابنا للآخرين متحمساً بالأسلوب الحسن والخطاب الرفيق المعتدل ، والحكمة والموعظة الحسنة ، ومدروساً ونابعاً من مقتضيات الأصالة والمرونة ، والعقل والوعي للحاضر والمستقبل ، والأخذ بمنهج الاعتدال والوسطية ، وبخاصة حال الضعف والتحديات الخطيرة ، مع تقدير وضع توازن القوى والقدرات .

\* \* \*